

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا
وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: 67]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ مَظَاهِرَ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكَوْنِ الْعَرِضِ؛ مِنْ جَعْلِ الْأَرْضِ قَرَارًا وَالسَّمَاءِ بِنَاءً، وَتَصْوِيرِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ وَمَا رَزَقَهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ، ثُمَّ ذَكَرَتْ الْآيَاتُ صِفَاتِ اللَّهِ ﷻ، وَمَا تَقْتَضِيهِ تِلْكَ الصِّفَاتُ مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ، وَنَبْذِ الشِّرْكِ؛ نَاسَبَ ذَلِكَ كُلَّهُ الْإِنْتِقَالُ إِلَى ذِكْرِ مَظْهَرٍ مِنْ تِلْكَ الْمَظَاهِرِ الدَّالَّةِ عَلَى عَجِيبِ خَلْقِهِ ﷻ، وَهُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ، فَفَصَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَرَاحِلَ خَلْقِ الْإِنْسَانِ مِنَ التُّرَابِ إِلَى الْوَفَاةِ، وَهُوَ كُلُّهُ فِي سِيَاقِ إِقْرَارِ أدَلَّةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، فَالْآيَاتُ حَلَقَةٌ مِنْ حَلَقَاتِ السِّيَاقِ الْمُتَعَانِقِ الدَّلَالَاتِ، وَالْآيَاتُ هِيَ جُزْءٌ تَفْصِيلِيٌّ مُرَدُّدٌ عَلَى إِجْمَالِ سَابِقِ الذِّكْرِ.

الانتقال من
دلائل التوحيد
الإجمالية إلى
مظهر تفصيلي
لأحدها

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿نُطْفَةٍ﴾: (نطف) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الْمَاءِ الصَّافِي (1)، وَيُعْبَرُ بِالنُّطْفَةِ عَنْ مَاءِ الرَّجُلِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) [الْمُؤْمِنُونَ: 13]، وَقَالَ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْسَاجٍ﴾ [الْإِنْسَانِ: 2]، وَيَكْنَى عَنِ اللَّوْلُؤَةِ بِالنُّطْفَةِ، وَمِنْهُ: صَبِيٌّ مُنْطَفٌ: إِذَا كَانَ فِي أُذُنِهِ لَوْلُؤَةٌ، وَالنُّطْفُ: اللَّوْلُؤُ، الْوَاحِدَةُ: نُطْفَةٌ (2)، وَاللَّوْلُؤَةُ تُشَبِّهُ الْقَطْرَةَ مِنَ الْمَاءِ الصَّافِي،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نطف).

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نطف).

فالنطفة في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ تعني: ماء الرجل الذي ينطفه⁽¹⁾ في رحم زوجته، فيكون منه الولد.

(2) ﴿عَلَقَةٍ﴾: (علق) أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يئاط الشيء بالشيء العالي، ثم يتسع الكلام فيه⁽²⁾، وعلق بالشيء علقة وعلقه: نسب فيه، والعلق: الدّم، ما كان. وقيل: هو الدّم الجامد الغليظ، وقيل: الجامد قبل أن ييبس، وقيل: هو ما اشتدت حمورته، والقطعة منه علقه، وفي التنزيل: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾⁽³⁾ [المؤمنون: 14]. فالعلقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هي قطعة الدّم الغليظة الحمراء العالقة في رحم المرأة بفعل نطف ماء الرجل فيه.

(3) ﴿طِفْلاً﴾: الطّفل: البنان الرّخص الناعم، والجمع طفال وطُفول؛ ويقال: جارية طفلة إذا كانت رخصة. والطّفل: الصغير من كل شيء، والجمع: أطفال، لا يجمع على غير ذلك، وقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ قال الزجاج: طِفْلاً هنا في موضع أطفال يدل على ذلك ذكر الجماعة، وكأن معناه: ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً. وقال تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ [النون: 31]؛ والعرب تقول: جارية طفلة وطفل، ويكون الطّفل واحداً وجمعاً مثل الجنب. وأُطِفِلَتِ المرأة والطّبيبة والنعم إذا كان معها ولدٌ طفلاً⁽⁴⁾.

(4) ﴿أَشَدَّكُمْ﴾: الشدة: الصلابة، وهي نقيض اللين. تكون في الجواهر والأعراض، والجمع شدّ، وقد شده يشده ويشده شداً فاشتد؛ وكل ما أحكم، فقد شدّ وشدّد، وشيء شديدٌ: مُشْتَدُّ قُوًى. وفي الحديث: «لا تبيعوا الحبّ حتى يشتدّ»⁽⁵⁾، أراد بالحبّ الطّعام كالحنطة والشّعير، واشتداده قوّته وصلابته⁽⁶⁾، ومادة (ش د د) تدور حول جملة من المعاني، منها: الصلابة، القوّة، الوثاقة، الارتباط، الغلبة، الإحكام، وتلك الدلالات ملحوظة في قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾: أي: تصيرون أقوىاء صلاباً.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نطف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علق).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (علق).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (طفل).

(5) موطأ مالك، ولفظه: «لا تبيعوا الحبّ في سنبله حتى ييبس»، كتاب البيوع، باب جامع بيع الطّعام بقرم: (50).

(6) ابن منظور، لسان العرب: (شدد).

(5) ﴿شُيُوعًا﴾: الشَّيْخُ: الَّذِي اسْتَبَانَتْ فِيهِ السِّنُّ وَظَهَرَ عَلَيْهِ الشَّيْبُ؛ وَقِيلَ: هُوَ شَيْخٌ مِنْ خَمْسِينَ إِلَى آخِرِهِ؛ وَقِيلَ: هُوَ مِنْ إِحْدَى وَخَمْسِينَ إِلَى آخِرِ عُمُرِهِ؛ وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الْخَمْسِينَ إِلَى الثَّمَانِينَ، وَالْجَمْعُ أَشْيَاخٌ وَشِيخَانٌ وَشُيُوخٌ وَشَيْخَةٌ وَشَيْخَةٌ وَمَشَيْخَةٌ وَمَشَيْخَةٌ⁽¹⁾، فَمَعْنَى ﴿شُيُوعًا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوعًا﴾: طَاعِنِينَ فِي السِّنِّ، ضِعَافَ الْبُتَى، وَفِي بُلُوغِ ذَلِكَ بَعْدَ الشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ دَلِيلُ عَظَمَةِ الْخَالِقِ تَعَالَى وَضَعْفِ الْمَخْلُوقِ.

❖ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

تُبَيِّنُ الْكَرِيمَةُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ مِنْ تَرَابٍ، ثُمَّ مِنْ مَنَى، ثُمَّ مِنْ قِطْعَةٍ عَالِقَةٍ بِجِدَارِ الرَّجَمِ، ثُمَّ يُخْرِجُهُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَهَاتِهِمْ أَطْفَالًا، ثُمَّ يَنْسَأُ أَعْمَارَهُمْ وَيُؤَخِّرُهَا لِيَبْلُغُوا أَشَدَّهُمْ مِنَ الْكَمَالِ وَالْقُوَّةِ، ثُمَّ يَمُدُّ فِي آجَالِهِمْ لِيَكُونُوا شُيُوعًا، وَهُوَ وَحْدَهُ الَّذِي يُقَلِّبُ النَّاسَ فِي هَذِهِ الْأَطْوَارِ، وَعَنْ أَمْرِهِ وَتَدْبِيرِهِ يَكُونُ ذَلِكَ كُلُّهُ⁽²⁾؛ لِيَبْلُغَ النَّاسُ بَعْدَ مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْحَقَائِقِ إِلَى الْعَقْلِ النَّافِعِ الْمُوَصِّلِ إِلَى التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ فَالنَّجَاةِ فِي الْآخِرَةِ.

❖ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالتَّبْلَاغِيُّ:

عَلَّةُ فَضْلِ الْجُمْلَةِ عَمَّا قَبْلَهَا:

فُصِّلَتِ جُمْلَةُ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ عَنْ جُمْلَةِ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66] لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ كَمَالِ الْإِتِّصَالِ، فَالثَّانِيَةِ بَيَانٌ لِقَضِيَّةِ الْخَلْقِ، وَالْأُولَى بَيَانٌ لِلرُّبُوبِيَّةِ، وَالْخَالِقِيَّةُ قَرِينَةُ الرُّبُوبِيَّةِ، فَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْعَالَمِينَ مِنْ تَرَابٍ، وَهُوَ الْجَدِيدُ بِالِاسْتِسْلَامِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ دُونَ سِوَاهِ. وَأَقِيمَتِ الْجُمْلَةُ

بيان مراحل
خلق الإنسان
لِعَقْلِ الْمَطْلُوبِ
والاهتداء إلى
المقصود

الخالق هو
المستجق
لاندقياد
والطاعة دون
الأغيار من
الخلق

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيخ).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 661.

الثَّانِيَةِ مُقَامِ التَّعْلِيلِ لِلأَوَّلَى؛ فَلِكُونِهِ الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ مِنْ تَرَابٍ، وَبَلَغَ بِهِمْ هَذِهِ الرُّتَبَةَ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ هُوَ جَدِيرٌ بِتَنْفِيزِ أَمْرِهِ السَّابِقِ فِي جُمْلَةٍ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66].

فائدة استعمال ضمير الفصل:

تنبيه الغافلين،
وتحريك سواكن
النَّائمين، لما
يجب أن يكون
حاضراً في
الأذهان

استعمل النَّظْمُ الْكَرِيمُ ضَمِيرَ ﴿هُوَ﴾ فِي جُمْلَةٍ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْمُخْتَصُّ بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَالْإِيجَادِ دُونَ سِوَاهُ، وَإِلَّا فَقَدْ كَانَ يَنْسَقُ الْأَسْلُوبُ بِدُونِ الضَّمِيرِ، فَيُقَالُ: (وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ)، غَيْرَ أَنَّ الضَّمِيرَ دَعَمَ خَصِيصَةَ الْقَصْرِ وَهَيَّأَ لَهَا، وَلَفَتْ إِلَيْهَا، وَأَكَّدَ عَلَيْهَا. ثُمَّ إِنَّ بِنَاءَ الْجُمْلَةِ عَلَى التَّعْبِيرِ بِالمُسْنَدِ إِلَيْهِ ضَمِيرًا مِمَّا يُقَرَّرُ نِسْبَةَ الْمُسْنَدِ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ إِلَى الْمُسْنَدِ إِلَيْهِ ﴿هُوَ﴾ فِي وَضُوحٍ وَصِرَاحَةٍ وَقُوَّةٍ لَا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ وَلَا التَّشْكِيكَ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَطْعًا خَلَقَهُمْ، وَقَطْعًا تَفَرَّدَ بِخَلْقِهِمْ. وَفَائِدَةُ الْقَصْرِ تَصُبُّ فِي تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ، وَتَحْرِيكِ سَوَاكِنِ النَّائِمِينَ، لِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا فِي الْأَذْهَانِ، مَسْمُوعًا فِي الْأَذَانِ.

غرض استعمال الاسم الموصول:

تعليل المعاني،
وتقوية نظم
اللباني، لما يحقق
المقصود من
القول المحمود

التَّعْبِيرُ بِالاسْمِ الْمُوصُولِ ﴿الَّذِي﴾ فِي جُمْلَةٍ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ هَيَّأَ الْأَسْلُوبَ لِذِكْرِ جُمْلَةِ الصَّلَةِ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ الْمُفْعَمَةِ بِالذَّلَالَاتِ الْمَقْصُودَةِ، وَهَيَّأَ لِمَا عُطِفَ عَلَيْهَا مِنْ جُمَلٍ عَدِيدَةٍ، وَهُوَ تَعْلِيلُ الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ النَّاسَ مِنْ تَرَابٍ، فَجُمْلَةُ الصَّلَةِ تَعْلِيلٌ مُقْنِعٌ وَرَدٌّ مُفْجِحٌ لِمَنْ تَكَبَّ طَرِيقَ الْحَقِّ وَآثَرَ الْبَاطِلَ عَنِ الْمَسَارِ الْحَقِّ، فَكَانَ الْاسْمُ الْمُوصُولُ بِصِلَتِهِ ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ﴾ خَبْرًا عَنِ الضَّمِيرِ ﴿هُوَ﴾، فَقَرَّرَ وَحْدَانِيَّتَهُ تَعَالَى فِي الْقُدْرَةِ عَلَى خَلْقِ النَّاسِ مِنْ ﴿تَرَابٍ﴾، ثُمَّ تَدْرِيجِيًّا فِي مَرَاكِحِ الْخَلْقِ إِلَى اكْتِمَالِ الْبَشَرِيَّةِ السَّوِيَّةِ، وَهُوَ مَا يَقْتَضِي إِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ وَحْدَهُ.

بلادة استعمال مفردة (الخلق):

تدل مفردة الخلق على دقة تقدير الموجد من عدم، ويستعمل الخلق في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء، وليس الخلق بمعنى الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال تعالى في الفصل بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17]⁽¹⁾، فذكر الخلق تليلاً لما لا يكون إلا للخالق المستحق للعبادة بما لا يدعيه أحد، وتمهيداً للإخبار عن تفاصيل الخلق بما لا يعلمه على وجه التحقيق أحد.

الخلق إبداع
الشيء من غير
أصل ولا احتذاء

نكتة التعبير بصيغة الماضي:

جاءت جملة الصلة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فعلاً ماضياً، لما في صيغة الماضي من الإشارة إلى الخلق الأول، المتمثل في خلق أبينا آدم ﷺ، وخلق أولاده نسماً في ظهره كما في قوله ﷺ: «أَخَذَ اللَّهُ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنَعْمَانٍ - يَعْنِي: بِعَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا فَنَشَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا وَقَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: 172] إِلَى قَوْلِهِ ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [٧٣] [الأعراف: 173]»⁽²⁾، فهذا خلق كان وتم وتحقق في ذلك الزمن البعيد، والماضي يُعبّر عنه بدقة دقيقة.

خلق الله تعالى
الناس متحقق
في الخلق الأول
الكامن في ظهر
آدم والخلق
الفعلي

ثم يأتي الخلق الثاني، وهو خلق النطفة فالعلقة فالولادة، فالماضي بالنسبة له يفيد الجزم بخلق من قدر الله تعالى له أن يخلق، وهو متحقق لمن وقع له الخطاب، فكل من يقرأ هذه الآية فإن خلقه قد تحقق وكان، ومن لم يولد بعد فإن الآية تخاطبه بعد أن يكون، وعليه فالآية متجددة الخطاب بما كان في الخلق الأول، وما هو كائن وسيكون في الخلق الثاني على الحقيقة في الأمرين.

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: 2/ 566.

(2) الحاكم، المستدرک على الصحيحين للحاكم، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمؤلفين، ذكر

آدم ﷺ: 2/ 593، برقم: (4000).

بلاغة القصر وغرضه:

الله سبحانه
وحده القدير
على الخلق
والتقدير

يُعطي بناءً جملة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ دلالة القصر البلاغي، الجازم باختصاصه ﷻ بالخلق والتقدير، وأنَّ أحدًا غيره ﷻ لا يُشاركه في ذلك؛ إذ في الخلق إيجادٌ من عدم، وفي التقدير ضبطٌ للمقادير التي بنى الله تعالى عليها دقائق المخلوقات، وقد قال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، فنبّه القصر إلى ذلك وأكّده.

والقصر فاعلٌ في سياقه هنا؛ إذ يكشف عن وجه الإسلام والاستسلام لرب العالمين، المذكور في الجملة السابقة ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66]، ويقرّر بأنّه ﷻ الحقيق بذلك.

نوع ﴿مَنْ﴾ ودلالاتها البيانية:

احتمالُ الابتداء
باعتبارِ الأصل،
والبيانِ باعتبارِ
الحقيقة

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ تحتملُ أن تكون ابتدائيةً تدلُّ على أنَّ ابتداءَ خلق الإنسان كان من ﴿تُرَابٍ﴾، وأنَّ التُّرابَ كان أصلَ منشئه ومادّة إيجاده، وأنَّ خلقَ كلِّ إنسانٍ كان ترابًا في ضمنِ خلقِ آدم ﷺ، ثمَّ خلقه الله تعالى خلقًا تفصيليًا بعد⁽¹⁾.

وتَحتملُ أن تكون بيانيةً، حيثُ تُبينُ أنَّ خلقَ جنسِ الإنسان وجميع أفرادهِ إنما هو من ﴿تُرَابٍ﴾، وقد أفصحَ عن ذلك الإمامُ الرَّازيُّ، حيثُ يرى أنَّ خلقَ كلِّ إنسانٍ من ترابٍ حقيقةً، يقول: "كلُّ إنسانٍ هو مخلوقٌ من المنيِّ ومن دم الطَّمث، والمنِّي مخلوقٌ من الدَّم فالإنسانُ مخلوقٌ من الدَّم، والدَّمُ إنما يتولّد من الأغذية، والأغذية إمّا حيوانيةً وإمّا نباتيةً، والحال في تكوُّن ذلك الحيوان كالحال في تكوُّن الإنسان، فالأغذية بأسرها مُنتهيةٌ إلى النّباتية، والنّباتُ إنما يكون من التُّراب والماء، فنَبَتَ أنَّ كلَّ إنسانٍ فهو متكوّنٌ من التُّراب"⁽²⁾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 283 / 7.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 531 / 27.

نكتة اختيار مفردة ﴿تُرَابٍ﴾:

آثر النظم الكريم استعمال مفردة ﴿تُرَابٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ليدل على ضآلة أصل الإنسان وضعفه؛ إذ التُّرَابُ هَشٌّ تُطِيرُهُ الرِّيحُ وَتَذَرُوهُ وَتُبَعَثِرُهُ، والسِّيَاقُ في بيان ضعف الإنسان حين الخلق، فردّه إلى أصله أدعى للإذعان والخضوع.

معرفةً ضَعْفِ
الإنسانِ
أدعى للطاعة
والإذعان

دلالة تنكير مفردة ﴿تُرَابٍ﴾:

نُكِرَتْ كلمة ﴿تُرَابٍ﴾؛ للإبهام والعموم؛ فلم يُخْلَقِ الإنسانُ من ترابٍ مخصوص، بل من عموم التُّرَابِ الَّذِي خلقه الله تعالى في الأرض، وهو التُّرَابُ الَّذِي إذا أُطْلِقَ عَرَفَهُ النَّاسُ، فهو غير مخصوص بلونٍ أو كثافةٍ أو من موضعٍ ما.

خَلِيقَ الإنسانِ
من ترابٍ غيرِ
مخصوصٍ

براعة استعمال حرف التَّراخي وتكراره:

جاء العطفُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بأداة ﴿ثُمَّ﴾، وهي للتَّراخي الرَّتَبِيُّ، فكلُّ مرحلةٍ تُمَثِّلُ نوعًا من الخلقِ تأتي بعدها مرحلةٌ أخرى، والجانبُ الزَّمَنِيُّ وإن كان ملحوظًا في سلسلةِ مراحلِ خلق الإنسان، إلا أنه تابعٌ للجانبِ المَرَحَلِيِّ؛ إذ الغرضُ الامتتان على الإنسان بذكرِ مراحلِ وصوله إلى درجةِ الإنسانيَّةِ الَّتِي بَلَغَهَا؛ فكانت ﴿ثُمَّ﴾ الرَّتَبِيَّةُ هي الجديرةُ بتلك التَّفَاصِيلِ المُبَيِّنَةِ عن تعظيم تلك الحِقْبِ، واللَّقَّتِ إلى عظيمِ المِنَّةِ فيها.

عنايةً الخالقِ
بالإنسانِ تفصيلًا
من عدمه إلى
وجوده

والمعنى الزَّمَانِيُّ في ﴿ثُمَّ﴾ ملحوظٌ في تعهّدِ العبدِ في تكوينه وتربيته منذ أن كان نَسَمَةً في ظَهْرِ آدَمَ ﷺ في الأزمانِ الغابرةِ، حتّى وصل إلى أن يكون أهلاً للتَّكليفِ، وهي تَسْبُعُ لِحِقْبِ التَّارِيخِ منذ آدَمَ ﷺ حتّى آخرِ الدَّهْرِ، فما أجدرَ الإنسانَ أن يستشعرَ المِنَّةَ عليه

من الله تعالى! وأن يتحلّى بالحياء فلا يعصِي رَبَّهُ العَظِيمَ ﷻ! وهذا المعنى حاضرٌ في العطفِ بحرف التّراخي في جميع المعطوفات.

دلالة استعمال مفردة ﴿نُطْفَةٍ﴾:

النُّطْفَةُ هي
الماء القليل،
التماسكُ
المُجْتَمِعُ على
نفسه، القابل
للنمو

النُّطْفَةُ هي ماءُ الرَّجُلِ الَّذِي يَنْطَفُهُ⁽¹⁾ في رَحِمِ زوجته فيكون منه الولد، وفي تسميتها بهذا إضفاءً لِظلالِ اللُّؤْلُؤَةِ الثَّمِينَةِ عليها وإيحاءً بقيمتها؛ فإنه في لغة العرب يُكْنَى عن اللُّؤْلُؤَةِ بالنُّطْفَةِ، ومنه قول العرب: صَبِيٌّ مُنْطَفٌ إذا كان في أُذُنِهِ لُؤْلُؤَةٌ، والنَّطَفُ: اللُّؤْلُؤُ، الواحدة: نُطْفَةٌ⁽²⁾، فالنُّطْفَةُ هي الماء القليل المتماسك المجتمع على نفسه القابل للنمو، ففي قوله تعالى: ﴿نُطْفَةٍ﴾ إشارةٌ إلى التناسل من آدمَ فَمَنْ بعده، والنُّطْفَةُ: الماءُ الَّذِي خُلِقَ المرءُ منه⁽³⁾، فالمقصودُ بالنُّطْفَةِ أصلُ "الحياة للإنسان، ثمّ تنتقلُ هذه النُّطْفَةُ في الرَّحِمِ، فتكون علقَةً، فمُضْغَةً، فعظامًا، فلعنًا يكسو هذه العظامَ، حتّى إذا اكتمَلَ الجنين في بطن أمّه وُلِدَ طفلًا، وهو الصُّورَةُ المصَغَّرَةُ لهذا الإنسان الَّذِي سيكونُهُ يومَ يكبرُ ويبلغُ أَشَدَّهُ"⁽⁴⁾.

بلاغة الإشارة في استعمال مفردة ﴿عَلَقَةٍ﴾:

الإنسان متعلّق
بأسباب الحياة
في مرحلة ما قبل
الوَعْيِ

العلقة في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ هي قطعة الدّم الحمراء الغليظة، العالقة في رحم المرأة، المتحوّلة من نطفة الرجل التي نطفها في رحمها، واستعمال مفردة ﴿عَلَقَةٍ﴾ مصوّرٌ بطبيعهِ اللُّغَوِيِّ المجرّد؛ لأنّه يُقِيمُ في خيال المتلقّي صورةَ قطعةٍ دم كثيفةٍ كأنّها معلقةٌ في فراغ، وهذا الفراغ معدٌّ لاستنباتها إنسانًا متكاملًا بعد ذلك؛ كما أنّها توحى بطبيعة الإنسان المتعلّق بأسباب الحياة مُدَّ وُجِدَ أصله، فتعلّق بجدار الرَّحِمِ؛

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نطف).

(2) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (نطف).

(3) ابن عطية، لحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.

(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1264.

ليكون مُمَسِّكًا بهذه الصِّفة في الرَّحْم، فمِلْتَقَمًا لِلثَّدي، فمَصاحِبًا
لَأُمِّه حَتَّى يَقوى فَيَنْفَصِلَ انْفِصالَ الْكارِهِ لِمَاضِيهِ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّاهُ اللَّهُ
بِالْعَنايَةِ، وَرَزَقَهُ مِنْ كَرِيمِ الْأَخلاق.

دلالة استعمال مفردة (الإخراج):

استعمل النَّظم الكريم مفردة (الإخراج) في جملة ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾؛
لأنَّ الإنسانَ كان "يعيش في عالم، ثُمَّ وَلِدَ فكان في عالمٍ آخرَ يَختلفُ
عن عالمه الَّذي كان فيه؛ فكانَ هذا الميلاَدَ إخراجًا جَديدَ له من
وجودٍ إلى وجود، ولهذا جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾
بالعطف بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي تفيِدُ التَّراخيَّ، ثُمَّ يَفْعَلُ الإخراجَ الَّذي يدلُّ
على المُغايرةِ بَيْنَ ما كان قَبْلَ هذا الإخراجِ وبعده⁽¹⁾، فَالتَّعبيرُ
بِالإخراجِ اقْتَضَتْهُ المُغايرةُ بَيْنَ أطوارِ خلقِ الإنسانِ، وَتحوُّلِهِ مِنْ طَوْرٍ
إلى آخر.

لفظُ (الإخراج)
دالٌّ على
القدرةِ المعجزةِ
والمخلوقاتِ
العاجزةِ

واقْتَضَى الإخراجُ اسْتِعْمالَ الحَرْفِ ﴿ثُمَّ﴾ المفيدِ تَباعُدِ الزَّمنِ
والرُّتبةِ بَيْنَ الحالِ قَبْلَ الإخراجِ والحالِ بَعْدَها، فَمَنْ الَّذي يَقْدِرُ
أَنْ يُصَيِّرَ التُّرابَ نَطفَةً، ثُمَّ عَلقَةً، ثُمَّ يُخْرِجَ طِفْلاً لِلوُجودِ؟ وَعَليه
فيُوحِي لفظُ الإخراجِ بَعْنَصِرِ المَفاجأةِ الدَّالةِ على القُدرةِ المعجزةِ.

فائدة التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

جاء التَّعبيرُ بِالفعلِ المضارعِ في جملةِ ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ مُخْتَلِفًا
عَنِ التَّعبيرِ بِصيغةِ الماضي في قولهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وَذلكَ لأنَّ
المضارعَ يُصوِّرُ حالَ الإخراجِ، وَيَدْعُو إلى اسْتِحْضارِ تَجَدُّدِ الإخراجِ
في كُلِّ مَرَّةٍ؛ لِتَحْقِيقِ الامْتِتانِ في سِياقِ الاسْتِدْلالِ؛ وَذلكَ أَنَّ الإخراجَ
لا زالَ يَتوالى وَيَتَجَدَّدُ إلى خُروجِ آخِرِ طَفلٍ في هَذِهِ الدُّنيا؛ فَلَمَّا كانَ
إِخراجُهُ تَعاليَ الدَّرَجَةَ أَطْفالًا مُتَجَدِّدًا في كُلِّ لَحْظَةٍ كانَ التَّعبيرُ
بِالمضارعِ ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ هو الْأَنسَبُ.

تحقيقُ الامْتِتانِ
في سِياقِ
الاسْتِدْلالِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1265.

نكتة إفراد لفظ ﴿طِفْلًا﴾:

خلق جميع
الأطفال في
قدرة الله تعالى
كطفل واحد

جاء لفظ ﴿طِفْلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ اسم جنس⁽¹⁾، وقد أُفرد هذا لأنَّ مَخْرَجَهُ مَخْرَجُ التَّمْيِيزِ⁽²⁾، والتَّمْيِيزُ تفسير وبيان لما أبهم، فالإخراج غير معلوم، ففسِّر بكونه طفلًا؛ لبيان الدلالة على القدرة الإلهية، فيلفتُ النظمُ بذلك الإفراد إلى يُسَرِّ خلق هؤلاء الأطفال الذين لا يُحْصَوْنَ عددًا، حتَّى لكَأَنَّ خَلْقَهُمْ جميعًا خلقُ (طفل) واحد، كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [القمان: 28].

فائدة تنكير لفظ ﴿طِفْلًا﴾:

استواء جميع
الأطفال في
الحقوق
والواجبات

نُكِّر لفظُ ﴿طِفْلًا﴾ للإشارة إلى استواء جميع الأطفال في عدم العلم بشيءٍ حال طفولتهم؛ واستوائهم في الحقوق والواجبات، وأنَّ التَّكْلِيفَ بِحَقِّهِمْ واحدةً، والحقوقَ لهم واحدةً باعتباراتٍ مختلفة، فالتنكيرُ أفادَ العمومَ والشُّمولَ الاستغراقيَّ، حتَّى كأنَّهم جميعًا طفلٌ واحد. وفي ذلك إخجالٌ للكافرين وإخزاءٌ لهم، ولِيَّ لخطام جموحهم لردِّهم إلى واحة الإيمان.

نوعُ (اللام) ودلالاتها:

تعليل خلق
الإنسان أطوارًا
بيانًا للحكمة

حرفُ (اللام) في قوله تعالى: ﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ لأمُ التعليل، وجعل بلوغَ الأشدِّ علَّةً لأنَّه أقوى أطوارِ الإنسان، وأجلى مظاهرِ مَواهِبه في الجسم والعقل، فجعلَ الأشدَّ الغايةَ المقصودة، وهو سنُّ الفُتُوَّةِ واستجماعِ القوى⁽³⁾، ثمَّ جعلَ بلوغَ سنِّ الشَّيْخُوخَةِ غايةً بعد غايةٍ؛ لإظهار رحمة الله تعالى بعباده، ليُرخِي لمن شاء منهم الزَّمانَ فيأتي الصَّالحَ من الأعمال، فهو "من

(1) ابن عطية، للحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4/ 568.

(2) للبرِّد، اللقتضب: 2/ 173.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 201.

عطفِ عِلَّةٍ على أُخرى، كأنَّه قيل: ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً؛ لِتَكْبُرُوا شَيْئاً فَشَيْئاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا كَمَالَكُمْ فِي الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ، ثُمَّ لِتَكُونُوا شِوْحاً⁽¹⁾.
نكتةٌ حذف متعلِّق اللّام:

تعلّقتِ اللّام في قوله تعالى: ﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ بمحذوفٍ، قدره المفسِّرون بالفعل (يُبيِّقكم) أو (يُنشئكم)؛ أي: "ثُمَّ يبيِّقكم لِتَبْلُغُوا"⁽²⁾، ولِتصلُّوا إلى تلك المراحل العُمريَّة كُلِّ بحسب أَجلِهِ الَّذِي كتبه الله تعالى له في هذه الحياة الدُّنيا، "كأنَّه قيل: ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً لِتَكْبُرُوا شَيْئاً فَشَيْئاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا كَمَالَكُمْ فِي الْقُوَّةِ وَالْعَقْلِ"⁽³⁾. وفي حذف المتعلِّق وجازةٌ تمنحُ التَّركيبَ تركيزاً، وتَجذبُ الأذهانَ إلى رؤيةٍ مَظهرٍ من مَظاهرِ عظمةِ الخالق تعالى، مُتمثِّلاً في التَّحوُّلِ بالطِّفْلِ الضَّعِيفِ الخالي من كُلِّ عِلْمٍ إلى الفُتُوَّةِ العَقْلِيَّةِ والشَّدَّةِ البدنيَّةِ.

بلاغةُ الإيماءِ في استعمالِ مفردة (البلوغ):

اصطفى النُّظم الكريم مفردةَ البلوغ في قوله تعالى: ﴿لِتَبْلُغُوا﴾؛ لما تدلُّ عليه من معنى الوصولِ والانتهاءِ إلى الغاية؛ فإنَّ خلق الإنسانِ ما كان إلَّا ليبلُغَ أَشدَّهُ ويكوِّنَ في أعلى درجاتِ العبادة والالتجاءِ إلى الله ﷻ، وهو يومئُ إلى أنَّ الإنسانَ عندما يصلُ مرحلةَ الأشدِّ يكوُنُ قد بلغ القِمَّةَ الَّتِي ليس مِن ورائها تراجعٌ، وعليه ففي هذه المفردة إيماءٌ إلى أنَّه ليس بعدَ الكمالِ إلَّا النِّقصُ، وأنَّ مَنْ سيبُلُغُ مرحلةَ الأشدِّ سيرجعُ بعَدها إلى مرحلةٍ دونَها في القُوَّةِ والكمالِ، وهي الَّتِي عبَّرَ عنها سبحانه بقوله: ﴿لِتَكُونُوا شِوْحاً﴾.

براعةُ اختلافِ إسنادِ الأفعالِ للفاعلين:

أُسندَ فعلُ الإخراجِ إلى ضميرِ العظمةِ في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، بينما أُسندَ فعلُ البلوغِ لِضميرِ المخاطَبينِ في قوله

خلق الإنسان
أطواراً متلاحقةً
معدوقاً بحكمةٍ
إلهيَّةٍ وإرادةٍ
ربَّانيَّةٍ

لكلِّ شيءٍ إذا
ما تَمَّ نُقصانُ
فلا يُعَرِّطُ طيِّبٍ
العَيشِ إنسانُ

(1) ابن عجيبة، البحر اللديد في تفسير القرآن الجيد: 150/5.

(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التَّنزيل: 177/4.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 283/7.

الإنسان يبدأ
مُخْرَجًا من بطن
أُمِّهِ حَتَّى يَبْلُغَ
أَشَدَّهُ ثُمَّ يَكُونُ
شَيْخًا

تعالى: ﴿لِتَبْلُغُوا﴾؛ وذلك أَنَّ الإخراجَ هو لله تعالى، وليس للطفل حينَ خروجه من بطن أُمِّهِ حَوْلٌ ولا قُوَّةً، وأمَّا البلوغُ فهو وإن كان بأمر الله تعالى وإرادته إلا أَنَّهُم مطالبون في حياتهم القيامَ بمجموعةٍ من التكاليف والأعمال، فهم لا يبلغون الأشدَّ إلا وقد قاموا بمجموعةٍ من الأعمال، فلا جُلَّ هذه المُلابسةُ أُسندَ فعلُ البلوغِ لهم، بخلاف فعل الإخراج، فليس لهم فيه أدنى سببٍ.

وأما في إسنادِ فعل التَّحَوُّلِ إلى مرحلة الشيخوخة فقد جُعِلَ تحوُّلُ الإنسان إليها مجردَ كَوْنٍ في جملةِ ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾؛ وذلك لأنَّها ليست مرحلةً نمائيَّةً للإنسان، بل هي مرحلةٌ تراجعٍ؛ فلم يُعبَّرَ فيها بفعل (البلوغ) بحيث يقول: لتبلغوا شيخوختكم؛ وذلك لِأَنَّ هذه المرحلة العُمريَّةَ ليست حبيبةً إلى الإنسان، فجُعِلَ الوصولُ إليها مجردَ كونٍ.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التعبير بصيغة المضارع في فعلَي (تبلغوا) و(تكونوا)؛ ليأتي على نَسَقِ المضارعة في جملةِ ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، وفيه تنبيهٌ إلى آية الله تعالى وفيما يطرأ على الإنسان من أغيارٍ وأطوار، واستحضاراً لِتَجَدُّدِ تلك المراحلِ وتَبَدُّلِ أحوالِ الإنسان فيها. كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الزُّمَر: 54].

بلغة استعمال مفردة ﴿أَشَدَّكُمْ﴾ مادةً وصيغةً:

مفردة (الشَّدة) في قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ هي حالة اجتماعِ القُوَّةِ وتَمَامِ العقل⁽¹⁾، والصَّلاية في بنية الإنسان، والفحولة في تفكيره، والمعنى: ثُمَّ لَتَنْتَهوا إلى ذِرْوَةِ قُوَّتِكُمْ وفُحُولَتِكُمْ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 330 / 15.

تَبَدُّلُ أحوالِ
الإنسان
وتَجَدُّدُهَا سَنَةً
كونيَّة، وهَبَّة
إلهيَّة

بلوغُ الإنسان
أعلى المراحلِ في
وقتٍ واحدٍ هي
مرحلةُ الأشدِّ

وتصيروا صِلَابًا، وصيغة (أشَدُّ) تدلُّ على ما يوافِقُ المعنى اللُّغويَّ، فهي فترة الذُّرَّة؛ إذ تسبقها مرحلةٌ ضَعْفٍ، وتتلوها مرحلةٌ ضَعْفٍ، وهي في صيغة الجمع ومعناه، ولم يُسمَعْ لها مُفرد⁽¹⁾.

ويُلمَح في جمودِ جمعٍ (أشَدُّ) وعدمِ وجودِ مفردٍ له من صيغته إشارةٌ إلى اجتماعِ القوَّة وتَمَامِ الفُتُوَّة للإنسان في هذه المرحلة؛ حتَّى كأنَّه جمعٌ لا واحدٌ، فالإنسانُ لا يبلغُ مرحلةً شديدةً واحدةً، بل يبلغُ مجموعةً من المراحلِ في وقتٍ واحدٍ، وهي المعبرُ عنها بالأشَدُّ.

نكتة استعمال لفظ «شيوخًا» وجمعيه وتكثيره:

المرحلة الأخيرة من عمر الإنسان هي الشيخوخة، وهي مرحلة ضَعْفِ البدن، وضعفِ العقل غالبًا؛ ففيها تراجعُ إمكاناتِ البنية البدنية والعقلية، وقد جاء استعمالها دون الكهولة؛ لأنَّ الأخيرة لا تستلزم الضَّعف، بل قد يبلغُ فيها بعضُ النَّاسِ ذرَّة قوَّتِهِمْ وشِدَّة فحولتِهِمْ؛ فهي من الخامسة والثلاثين إلى الخمسين؛ فالتَّعبيرُ بلفظ «شيوخًا» هو الأنسبُ في السِّياقِ باعتبارين؛ الأوَّل: ضعفُ بنية الإنسان، الثَّاني: تكريمُ هذا الإنسان الضَّعيف، وإضفاء صفاتِ الوقار والمهابة وما إليهما عليه، ففي وصفٍ «شيوخًا» تطييبٌ لخواطِرِهِمْ، وتعويضٌ لهُم في جانبِ الوقار ما فاتَهُمْ في جانبِ الفتوَّة والقوَّة النَّاضِجِ به وصفٌ «أشدَّكُمْ»؛ لذلك أيضًا جُمِعَ لفظُ «شيوخًا» ونُكِّرَ؛ ليُضْفَى عليهم وقارًا وفخامة.

بلادة فنَّ الإدماج:

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ» امتنانٌ من الله تعالى على النَّاسِ، وجاء الامتنانُ في سياقِ إثباتِ الوحدانية للخالق

يُوحى لفظُ
(شيخ) مِن
التَّكْرِيمِ والوقارِ
ما يَجْبُرُ ضَعْفَ
بِنْيَتِهِ وعقلِهِ

الامتنانُ بخلقِ
الإنسانِ من
عدمِ امتنانٍ
ذُكِرَ في سياقِ
الاستدلالِ على
التَّوْحِيدِ

(1) أبو جيب، القاموس الفقهي، ص: 191.

العظيم، وتقرير قدرته المطلقة ﷻ، وإلى ذلك يمتن الله تعالى على مَنْ خَلَقَهُمْ وَأَوْجَدَهُمْ، وعلى مَنْ قَدَّرَ لَهُمْ بُلُوغَ الْأَشَدِّ، "وهذا الامتحانُ بنعمة الإيجاد، وهو نعمة؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ والمعدومَ لا عنايةَ به، وأُدْمِجَ فيه الاستدلالُ على الإبداع"⁽¹⁾؛ فَإِنَّ ذَكَرَ مراحلَ الخلقِ بغرضِ الامتحانِ سَيَقَتْ في سياقِ الاستدلالِ على الوحدانيَّةِ.

نوعُ الواو ومعناها في قوله: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾:

تحذيرٌ مِنَ الْحَقِّ
سبحانه بالموتِ
في سَنٍّ مُبَكَّرَةٍ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ للاستئناف؛ إذ التَّوَفَّى قبلَ بُلُوغِ سَنِّ الشَّيْخُوخَةِ قد يَطْرَأُ على كثيرٍ مِنَ النَّاسِ، فالمرحَلُ ليستَ مطَّردةً، فهي ضِمْنُ السَّنَةِ الغالبةِ لا اللازمةِ.

نوعُ (مَنْ) ودلالاتُها في قوله: ﴿وَمِنْكُمْ﴾:

الغالبُ في أعمارِ
النَّاسِ بُلُوغُ سَنِّ
الشَّيْخُوخَةِ،
وقليلٌ دونَ ذلك

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ للتَّبَعِيضِ، وهو يُلَمَحُ إلى قِلَّةِ عددِ هؤلاء الَّذِينَ لا يَبْقَوْنَ إلى الشَّيْخُوخَةِ بِالنِّسْبَةِ إلى عددِ مَنْ يَعِيشُ إِلَيْهَا؛ إذ البَعْضُ جزءٌ مِنَ الكُلِّ، والكلُّ أَشْمَلُ مِنَ البَعْضِ، وفي ذلك بَشَارَةٌ لِلنَّاسِ أَنَّهُمْ سَيُعَمَّرُونَ إِلَّا قَلِيلًا، وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ لِبَعْضِهِمْ إِلَّا يَعِيشُوا إلى سَنِّ الشَّيْخُوخَةِ؛ لِحِكْمِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، ففي قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ "استقراءٌ لأحوالِ الأطوارِ الدَّالَّةِ على عَظِيمِ القُدْرَةِ والحِكمةِ الإِلَهِيَّةِ، مع التَّنْبِيهِ على تَخَلُّلِ الوجودِ والعدمِ أَطوارَ الإنسانِ بدءًا ونهايةً كما يَقْتَضِيهِ مَقَامُ الاستدلالِ على البعثِ، والمعنى: وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى قَبْلَ بُلُوغِ بَعْضِ الْأَطْوَارِ"⁽²⁾.

فائدةٌ تقديم (منكم) على السند إليه:

قَدْ أَمَّ الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ (منكم) على المبتدأ ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى﴾ وهو متعلِّقٌ بِخَبَرٍ مَحْذُوفٍ، والتَّقْدِيرُ: وَمَنْ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 197 / 24.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 201 / 17.

تحذير الإنسان
بأنَّ أجله متوقَّع
قبل بلوغه
جميع مراحل
عمره

يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ بَعْضُ مِنْكُمْ، فَحُذِفِ الْخَبْرُ لِتَوْجِيهِ الْأَنْظَارِ لِلجَارِّ
والمَجْرُورِ (مِنْكُمْ)؛ لزيادةِ التَّنْبِيهِ إِلَى إمكانيَّةِ نَزُولِ المَوْتِ بِكُلِّ أَحَدٍ
مِنِ المَخاطَبِينَ فِي أَيِّ وَقْتٍ، وَلِتَحذِيرِ المَخاطَبِينَ مِنَ الغَفْلَةِ والوَقُوعِ
فِي شَرِّكَ طَوْلِ الأَمَلِ لبلوغِ الشَّيْخوخَةِ.

هذا مِنْ حَيْثُ المَعْنَى، أَمَّا مِنْ حَيْثُ الصِّيَاغَةُ وَالتَّرْكِيبُ فَإِنَّ
تَقْدِيمَ المَوْصُولِ وَصَلْتَهُ عَلَى الجَارِّ وَالمَجْرُورِ يُلَبِّسُ الْخَبَرَ بِالحَالِ،
فَيَظُنُّ السَّامِعُ أَنَّ (مِنْكُمْ) مُتَعَلِّقَانِ بِمَحذُوفٍ حَالٍ وَأَنَّ الْخَبَرَ سَيَأْتِي
بَعْدَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مُرَادًا مِنْ نَظْمِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ.

علَّة استعمال ﴿مَنْ﴾ دون (الَّذِي):

جاء التَّعبِيرُ بِالمَوْصُولِ ﴿مَنْ﴾، وَهُوَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ دُونَ (الَّذِي)؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْعُمُومِ، وَلَوْ قَالَ:
(وَمِنْكُمْ الَّذِي يُتَوَفَّى) لَظُنُّ أَنَّ الْمَقْصُودَ مَعِيْنٌ.

موقع جملة ﴿يُتَوَفَّى﴾ مِنْ التَّرْكِيبِ:

جملة ﴿يُتَوَفَّى﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾
صَلَةٌ ﴿مَنْ﴾، فَهِيَ تُتِمُّ نَقْصَ دَلَالَتِهِ وَتُسَدُّ فَقْرَهَا، وَهُوَ مَا أَتَا حَا فِي
الْكَلَامِ وَهِيَ أَلِهَا، وَالْأَفْلَاقِيلُ - فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ - (وَمِنْكُمْ
أَنَاسٌ لَا يَعْمُرُونَ، بَلْ يُفَارِقُونَ الْحَيَاةَ قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ بِمَرَحِلَةٍ أَوْ أَكْثَرَ
- لِمَا أَفَادَ هَذَا التَّرْكِيبُ - بَرَعَمَ مَا فِيهِ مِنْ طَوْلٍ - مَا تَفِيدُهُ جَمْلَةُ
الصَّلَةِ ﴿يُتَوَفَّى﴾؛ إِذْ فِيهَا مَعْنَى التَّوَفِّيَةِ، وَأَنَّ هَذَا الَّذِي مَاتَ خِلَالَ
الْمَرَاكِحِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْعُمَرِ لَمْ يَدَعْ مِنْ عُمُرِهِ الْمَقْدُورِ لِحِظَةٍ، بَلْ يَكُونُ
قَدْ اسْتَوْفَاهَا عَلَى التَّمَامِ الَّذِي أَجَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿يُتَوَفَّى﴾ مادَّةً وصيغةً:

اسْتُعْمِلَ لَفْظُ ﴿يُتَوَفَّى﴾ لِإِفْهَامِ النَّاسِ أَنَّ المَوْتَ قَبْلَ الشَّيْخُوخَةِ - إِنْ
وَقَعَ - هُوَ مَوْتُ اسْتَوْفَى صَاحِبُهُ بِهِ الْأَجَلَ، وَفِيهِ تَرْطِيبٌ لِنَفْسٍ مَنْ يَمُوتُ
لَهُ أَحَدٌ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَشَدِّ أَوْ الشَّيْخُوخَةِ، وَتَعْمَلُ عَلَى إِطْفَاءِ حُرْقَةِ قُلُوبِهِمْ.

الموت في سنٍّ
مُبَكَّرَةٍ لَيْسَ
مَحْصُورًا بِفِتْنَةٍ
مُعَيَّنَةٍ

الَّذِي يَمُوتُ فِي
مُقْتَبِلِ الْعُمَرِ لَمْ
يَدَعْ مِنْ عُمُرِهِ
الْمَقْدَرِ لَهُ لِحِظَةٍ

لا تَمُوتُ
الْأَنْفُسُ إِلَّا بَعْدَ
الاسْتِيفَاءِ التَّامِّ
لِلْأَعْمَارِ

وجاء التعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يُتَوَفَّى﴾ استحضاراً لتلك الحال؛ فلا تزالُ ماثلةً أمام الأعين، تدعوها إلى اليقظة وعدم الغفلة وكمال الاستعداد، فالقرآن الكريم يخاطب كلَّ جيلٍ وكلَّ قبيلٍ، فما زالوا أحياءً يخاطبون، وموتهم مُحتملٌ في الحال أو الاستقبال.

نكتة بناء الفعل للمفعول:

جاء التعبيرُ ببناء فعل ﴿يُتَوَفَّى﴾ للمفعول في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾؛ للعلم بالفاعل الحقيقي وهو الله ﷻ، فبعدم تعيين الفاعل لا يقع اللبس، ولتوجيه الأنظار إلى مضمون الفعل وهو الوفاة، فالمقصودُ هو التنبية والتحذير مما يقع الناس فيه من الغفلة وإطالة أمل الانتظار، وكثرة تسويف الطاعات.

دلالة ﴿مَنْ﴾ في القيد:

أفاد حرف ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ تأكيداً إمكان وفاة الإنسان خلال مراحل حياته، التي تكون قبل بلوغ مرحلة الشيخوخة؛ لدفع ضعف القلوب وتهاونها.

نكتة حذف المضاف إليه:

آثر النظم الكريم حذف ما أُضيفت إليه ﴿قَبْلُ﴾، على نيّة معنى المضاف إليه؛ إذ التقدير قبل الحذف: من قبل ما ذكر⁽¹⁾، أو من قبل أن يبلغ أشده، أو من قبل أن يصير شيخاً⁽²⁾، أو عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً، وآخرون قبل الأشد، وآخرون قبل الشيخوخة⁽³⁾، ونكتة الحذف الإيجاز اللفظي، واستيعاب جميع المعاني المحتملة في التقدير، التي يحويها الطرف الدالُّ على مراحل الإنسان كلها المتلوة في السياق.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24 / 198.

(2) السمرقندي، بحر العلوم: 3 / 213.

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز: 4 / 568.

توجيه الأنظار
للمقصود؛ ليقع
التنبية ويتحقق
التحذير

عدم التهاون في
أمر الموت؛ فربّما
يفجأ الشباب

استيعاب
المحتملات عند
اتساع الدلالات
من بديع النظم
وجمال الفهم

بلغة الاحتراس:

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ "احتراسٌ يُراد به تقييدُ هذا الإطلاقِ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾"⁽¹⁾؛ فبعضُ النَّاسِ يصلُ إلى مرحلة الشيخوخة، وبعضهم يوفَّى عمره المقدَّرَ له قبلها، فيكون هذا أجله الذي أجله الله تعالى له. وفائدةُ الاحتراسِ دفعُ أوهامِ النفوسِ، ورغباتِ أصحابِ الشَّهواتِ في الطَّعنِ في القرآن، ومعرفةُ أنَّ بعضَ النَّاسِ يُتَوَفَّى قبل بلوغِ سنِّ الشيخوخةِ مِنَ البدهيِّ الذي لا يجهله العامِّيُّ، فذكرُ هذا القيدِ مع وضوحه لإيقافِ الأوهامِ ودحضِ المطاعنِ، فإنَّ العدولَ عن الواضحاتِ سبيلُ الأفكارِ المغلوطةِ.

تعيينُ المعطوفِ عليه:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُوا﴾ عاطفةٌ، حيثُ يُحتمَلُ عطفُ جملةٍ (لَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى) أن يكونَ على جملةٍ ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ - وما بينهما من قوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ احتراسيةٌ من تحتمُّ أطراد تلك الحالات كلها في البشر - أو أن يكونَ على جملةٍ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ﴾ بتقديرٍ محذوفٍ يدلُّ عليه ما قبله؛ أي: ومنكم من يُمدَّ في أجله لتبلغوا الأجلَ المكتوبَ لكم⁽²⁾.

نكتةُ مخالفةِ النَّسقِ بالعطفِ بالواو دون (ثم):

خالفَ النَّسقُ الكريمُ في العطفِ، فجاء العطفُ بحرفِ التَّراخي بين الأفعالِ، إلَّا في قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ فجاء بالواو دون (ثم)؛ "لِتَعْلُقَ" قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بما يليه خاصَّةً، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، والمعنى: أنَّ الله قدَّر انقراضَ الأجيالِ وخلفها⁽³⁾ بأجيالٍ أخرى، فالحيُّ غايته الفناء وإن

توضيحُ البدهيِّ
الَّذي لا يجهله
العامِّيُّ؛ لدفعِ
الأوهامِ ونَحْرِ
شَرِّ الأفهامِ

تعدُّدُ احتمالاتِ
تعيينِ المعطوفِ
عليه جزالةً في
اللفظِ ورسالةً
في المعنى

تعدُّدُ الغاياتِ،
بمنزلةِ تعدُّدِ
الآجالِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1265 / 12.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1265 / 12.

(3) في الأصل "خلقها"، والسياق أجود بتعديلها إلى "خلفها"، بقرينة الجازِّ والمجرور بعدها "بأجيالٍ أخرى".

طالَتْ حَيَاتُهُ، لَمَّا خَلَقَهُ عَلَى حَالَةٍ تَوَوَّلُ إِلَى الْفَنَاءِ لَا مُحَالَةَ كَانَ عَالِمًا
بَأَنَّ مِنْ جُمْلَةِ الْغَايَاتِ فِي ذَلِكَ الْخَلْقِ أَنْ يَبْلُغُوا أَجَلًا⁽¹⁾، وَهَذَا عَلَى
جَعَلٍ جُمْلَةٍ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى مِنْ قَبْلٍ﴾ اعْتِرَاضِيَّةٌ.

نوع اللام ومعناها في ﴿وَلَتَبْلُغُوا﴾:

ما كان خلق
الناس إلا لبلوغ
الأجل ونفاذ
الأمل

(اللام) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ
لَامَ التَّعْلِيلِ، وَالْمَعْنَى: "وَنَفَعَلْ ذَلِكَ لَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى"⁽²⁾؛ "أَي: هَذِهِ
الْأَصْنَافُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مَيَّسَّرَةً لِيَبْلُغَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا أَجَلًا مُّسَمًّى لَا
يَتَعَدَّاهُ وَلَا يَتَخَطَّاهُ، وَلَتَكُونَ مَعْتَبَرًا"⁽³⁾، وَتَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَامَ الْعَاقِبَةِ⁽⁴⁾؛
أَي: لَتَكُونَ عَاقِبَتُكُمْ الْإِنْتِهَاءَ إِلَى آجَالِكُمُ الْمَحْدَدَةِ؛ لَتَحَاسِبُوا نَمَّ.

نكتة استعمال مفردة البلوغ:

النظم القرآني
يعالج المقامات
بدقة؛ فيوزع
الأفعال على ما
يناسبها

عَادَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ إِلَى التَّعْبِيرِ بِالْبُلُوغِ فِي جُمْلَةٍ ﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا
مُّسَمًّى﴾ بَعْدَ التَّعْبِيرِ بِالْكُونِ فِي جُمْلَةٍ ﴿لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾؛ وَذَلِكَ أَنَّ
الْإِنْسَانَ يَسْعَى إِلَى أَجَلِهِ مِنْذُ أَنْ يُولَدَ، فَيَبْلُغُ الْأَجَلَ غَايَةً كُلَّ حَيٍّ سِوَى
الْحَيِّ ﷺ، وَبُلُوغُ الْأَشَدِّ غَايَةُ الْإِنْسَانِ، وَبُلُوغُ الْأَجَلَ غَايَةُ الْحَيَاةِ كُلِّهَا؛
فَسَبَّحَانَ مَنْ وَزَعَ الْبُلُوغَيْنِ، وَوَسَّطَهُمَا الْكُونَ شُيُوخًا!

بلاغة إسناد بلوغ الأجل المسمى إلى واو الجماعة:

مهما طالت
الأعمار فالأجل
المسمى سيبلغه
الجميع

إِسْنَادُ بُلُوغِ الْأَجْلِ الْمُسَمًّى إِلَى وَאוِ الْجَمَاعَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ إِسْنَادٌ مُجَازِيٌّ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَبْلُغُ الْأَجَلَ
الْمُسَمًّى بِنَفْسِهِ بَلْ بِمَا كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَنَكْتَةُ إِسْنَادِ بُلُوغِ الْأَجْلِ
إِلَى الْمُخَاطَبِينَ وَقَوْعُ التَّخْوِيفِ وَالتَّحْذِيرِ مِمَّا يَسْعَى الْإِنْسَانُ إِلَى
بُلُوغِهِ بِنَفْسِهِ وَهُوَ عَنْ نَهَايَتِهِ فِي غَفْلَةٍ، كَمَا أَنَّ إِسْنَادَ فِعْلِ بُلُوغِ الْأَجْلِ
الْمُسَمًّى إِلَى الْمَجْمُوعِ - وَهُوَ وَاوِ الْجَمَاعَةِ - تَوْزِيعٌ لِلْأَجَالِ الْمُسَمَّاءِ عَلَى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24 / 198.

(2) الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: 4 / 177.

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 4 / 568.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15 / 330.

أَحَادٍ أَصْحَابِهَا؛ "أي: ليلبغ كل واحدٍ منكم أجلاً مسمى لا يتعداه، وهو أجلٌ موته"⁽¹⁾؛ وبذلك يؤدي هذا الإسنادُ الدَّالَّتَيْنِ دَفْعَةً؛ ليقومَ مقامُ إسنادين؛ ففيه إيجازٌ بليغ.

براعة استعمال مفردة (أجل) في المعاني المحتملة:

آثر النظم الكريم استعمال مفردة (أجل)؛ وذلك لأنَّ منتهى العمر مؤجَّلٌ بأجلٍ ومؤقَّتٌ بوقتٍ، ومحدَّدٌ بدقَّةٍ لا يتجاوزها العمر ولا يسبقُها ألبتة، كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34]، ففي مفردة الأجل إيماءٌ إلى أنَّ هذا العمر والزَّمن الذي يمكث فيه الإنسان حتَّى تأتي ساعةُ الأجل قد أُجِّلَ إلى أقصى زمنٍ، فأخذَ الإنسانَ حظُّه البالغ فيه، ولم يُسارعِ إليه الموتُ، إلى أن جاءه الأمرُ بقبضِ الرُّوح، وهذا على القول بأنَّ الأجل المسمَّى هو موتُ الإنسان، وعلى القول بأنَّه يومُ القيامةِ فإنَّه مؤجَّلٌ لجميعِ الخلق، ففيه إشعارٌ بالرحمةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي جعلها اللهُ لعباده فيما ضربَ عليهم من آجالٍ مفرَّقةٍ، وأجلٍ مجموعٍ له النَّاسُ جميعاً.

نكتة تنكير ﴿أَجَلًا﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿أَجَلًا﴾ للإبهام، فيُلائِمُ إخفاءه، ويُعلِّمُ الجميعَ بجهلهم به، سواءً على القولِ بأنَّه الموتُ لكلِّ حيٍّ، أو يومُ البعث لجميعِ البشر⁽²⁾؛ فللدُّنيا أجلٌ، كما أنَّ لكلِّ حيٍّ أجلاً.

بلادة الكناية في الوصف:

وُصِفَ ﴿أَجَلًا﴾ بصفةٍ ﴿مُسَمًّى﴾ كنايةً عن تعيُّنِ علمه عند الله تعالى، وأنَّ الله تعالى سمَّاه بوقتٍ محدَّدٍ، فكل إنسانٍ يمضي إلى أجله المسمَّى لا يتخطَّاه؛ لأنَّه مسمَّى عند الله تعالى، يُطَّلَعُ عليه مَلَكُ الموت حين يشاء سبحانه، فتسميته تقرر ذلك التَّحديد، وتنتزع من

تأجيل موت
الإنسان لأقصى
زمن من مظاهر
الرحمة وأدلة
الرأفة

ملءمة الإبهام
للإخفاء

تسمية الأجل
كناية عن تعيُّنه
بلخطئه لكل
إنسان

(1) ابن عجيبة، البحر اللدي في تفسير القرآن الجيد: 150 / 5.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 661 / 8.

نفس العبد كلَّ شكٍّ في أنَّ أجله محدَّدٌ سلفاً، منذ أنَّ كان في بطن أمِّه وأمرَ الملكُ "بِكُتِّبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ"⁽¹⁾.

نوع الواو ودلالاتها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ واو العطف، حيث تُبَيِّنُ الجملةُ المعطوفةُ بها (لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) سببِيَّةَ المعطوف عليه ﴿لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾؛ فغاية الغايات من ذكر هذه المراحل المتتابعة على الإنسان، وثمرَةُ الثمرات أن يُتَوَجَّحَ الإنسانُ بنعمةِ العقل الرِّصينِ، الَّذي يظفر بواسطته بأسباب الوصول إلى رضوان الخالق العظيم، الَّذي سبق أمرُهُ تعالى في جملة ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: 66]، وأوَّلُ تلك الأسبابِ امتلاكُ العقل الموقَّع المستنير.

بلاغة استعمال أداة (لعل):

تُسْتَعْمَلُ (لعل) في الأصل للرجاء، والرجاء لا يجوز على الله تعالى؛ فالمعنى هو تَرْجِيئُهُ سبحانه عباده بلوغَ مراده منهم؛ أي: لتكونوا على رجاء بلوغ درجة العقل، والظفر ببركاتهما، والهنازة بسلام نفوسكم وراحة بالكم؛ والنَّجاة ممَّا لا ينبغي الوقوع فيه من أسباب غضب الله تعالى، فهذا من أجمل ثمار أعمال العقل السليم ونتائجه.

كما أنَّ أداة (لعل) تفوِّحُ بمعنى التعليل؛ أي: أنه سبحانه قدَّر للإنسان هذه المراحل خلال عمره، وبيَّنَها له؛ ليعقل عن الله تعالى، ويستدلَّ بإعمال العقل على وحدانيَّته وكمالِ قدرته وعظيمِ حكمته، فيوحِّده ويخصَّه بالعبادة، وهذا طريق الفلاح والوصول.

دلالة التعبير بمفردة العقل:

دلَّت مادَّةُ العقل في جملة ﴿تَعْقِلُونَ﴾ على طلب حُسنِ إعمال العقل؛ وذلك يؤدِّي حتماً إلى الإيمان بالله إلهاً واحداً لا شريك له،

(1) مسلم، صحيح مسلم: كتاب القَدَر، باب كَيْفِيَّةِ خَلْقِ الْآدَمِيِّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَكِتَابَةِ رِزْقِهِ...: 4 / 2036 برقم: (2643).

غاية الغايات
بلوغ العقل
الطلب منه قبل
بلوغ صاحبه
الأجل المحتوم

من أطيب ثمار
العقل السليم
توحيد الله
تعالى وإخلاص
العبادة له

والخالق ﷻ بدأ الآية الكريمة بالخلق ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ وأكملها بالعقل ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ممّا يدلُّ على أنّه يريد لعباده أن يُحْكِمُوا التَّفْكِيرَ وَيُدَقِّقُوا فِي نَتَائِجِهِ وَفَقَ دِينَهُ وَشَرِيعَتَهُ، وَأَلَّا يَدَعُوا أَنْفُسَهُمْ لِعَشَوَائِيَّةِ الْأَفْكَارِ؛ فَإِنَّ الْأَفْهَامَ الصَّحِيحَةَ تَأْتِي لِلإِنْسَانِ، وَالْأَوْهَامَ الْبَاطِلَةَ تُتَمَّى فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَنِ الْأَذْهَانِ، لَكِنَّ الْعِبْرَةَ لَيْسَتْ فِي ذَلِكَ أَوْ ذَاكَ، بَلْ فِي عَقْلِ السَّلِيمِ، وَطَرْدِ السَّقِيمِ.

العبرة في عقل
السليم من
الأفهام وطرد
السقيم من
الأوهام

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

جاء التعبيرُ بالمضارع في فعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ لدعوة العباد إلى تجديد التفكير وإعمال العقل في مراحل خلق الإنسان، ممّا يؤدي إلى الاستدلال على وحدانيّته، وعلى البعث.

كمال العقل في
تجدد الفكر

نكتة حذف متعلّق فعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾:

حُذِفَ متعلّق فعل ﴿تَعْقِلُونَ﴾ في جملة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إمّا لتنزيله منزلة الفعل اللازم الذي لا يقتضي مفعولاً؛ فيكون المعنى: لتتعلّلوا بالعقل، ويحصل لكم كمال العقل الرّصين، وإمّا على إبقائه على تعدّيه، ويُقدّر له مفعولٌ خاصٌّ مناسبٌ للسياق، فيكون المعنى: لعَلَّكم تعقلون أنّ البعث حقٌّ، كما أنّ خَلَقَكم حقٌّ، أو مفعولٌ عامٌّ، والمعنى: لعَلَّكم تعقلون الحقائق إذا نظرتُمْ في هذا، وتدبرْتُمْ حكمة الله تعالى⁽¹⁾، وتعقلون ما في هذه الأحوال العجيبة من القدرة الباهرة الدّالة على توحيده وقدرته⁽²⁾.

العقل المطلوب
هو الاتّصاف به
سلوكًا دائمًا
متجدّدًا

توجيه التشابه اللفظي:

جاء في سياق وصف خلق الإنسان في سورة الحجّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ

المتشابه اللفظي
يتسبّق مع
السياقات، ويثري
القامات، ويدعم
تحقيق الأغراض

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 568 / 4.

(2) الخازن، لباب التّأويل في معاني التّنزيل: 80 / 4.

وَيُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ
مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴿٥﴾ [الحج: 5]، فبناءً
التفصيل في سورة الحج للمراحل السبع، وذلك أَنَّ السياق صريح في إقامة الحجة على
المرتابين في أمر البعث، وسوق الدليل العقلي الكاشف عن إمكانيته؛ فكان من الضروري
تفصيل المراحل السبع لخلق المرتابين دون إجمال، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١﴾﴾ [الذاريات: 21].

بينما اختصت سورة غافر بذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا﴾
فعطف طور الشيخوخة على طور الأشد باعتبار أَنَّ الشيخوخة مقصد للأحياء لحبهم
التعمير، فهذه الآية وردت موردَ الامتنان، فذكر فيها الطور الذي يتملى المرء فيه بالحياة،
ولم يذكر في آية سورة الحج؛ لأنها وردت موردَ الاستدلال على الإحياء بعد العدم؛ فلم
يذكر فيها من الأطوار إلا ما فيه ازدياد القوة ونماء الحياة دون الشيخوخة القريبة من
الاضمحلال، ولأنَّ المخاطبين بها فريق معين من المشركين كانوا في طور الأشد، وقد
نبهوا عقب ذلك إلى أَنَّ منهم نفراً يردون إلى أَرْدَلِ العمر، وهو طور الشيخوخة بقوله:
﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ [الحج: 5] (1).

وقال ﷺ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ
نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعُلُقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا
فَكَسَوْنَا الْعِظْلَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14].
وواضح أَنَّ السياق هنا يركز على مراحل التخليق الأولى للإنسان في رحم أمه قبل الولادة
بتفاصيلها الأدق؛ إذ تختص كل مرحلة منها بخلق صريح: ((خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ)) [المؤمنون: 12]...
﴿ثُمَّ خَلَقْنَا﴾... ﴿فَخَلَقْنَا﴾... ﴿فَخَلَقْنَا﴾... ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14].

أمَّا في سورة غافر فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ
عُلُقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ
قَبْلٍ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فنص النظم الكريم هنا على ثلاث مراحل

قبل الولادة وثلاثٍ بعدها من دون الخوض في التفاصيل السابقة؛ إذ المقام هنا بصدد تحرير قضية التوحيد لا التدليل على إمكان البعث؛ لذلك ساق النظم الكريم تلك المراحل ضمن أدلةٍ أخرى على وحدانية الله تعالى؛ فكان ما ذكر من مراحل خلق الإنسان كافياً ومتسقاً مع تلك الدلائل الأخرى.

❁ الفروق المعجمية:

الخلق والجعل:

الخلق فيه معنى الإبداع والتقدير، وفي الجعل معنى التصيير، كإنشاء شيءٍ من شيء، أو تصيير شيءٍ شيئاً، أو نقله من مكانٍ إلى مكان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]؛ لأنَّ الظُّلُمَاتِ من الأجرامِ المتكاثفة، والنُّور من النار⁽¹⁾.

الخلق إبداعٌ
وتقدير،
والجعل تصييرٌ
من حالٍ إلى آخر

(1) السمين الحلبي، الدّر للصون في علوم الكتاب المكنون: 4 / 523.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447 هـ - 2026 م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026 م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.

مج. 51، 822 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-642-97-8

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 51: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزمر من الآية 73 إلى سورة غافر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ-العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-642-97-8

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»